الأدب الجاهلی بین البیئتین الطبیعیة والاجتماعیة

مهدی ممتحن*

الملخص

الشعر هو الذی یشهد علی أثر خالقه وصوره الزمینة والمکانیة. فالشاعر لم یقدر علی أن یبتعد عن مجتمعه وبیئته الاجتماعیة والطبیعیة وهو جزء منها، لأنه عاش معها مادامت بجانبه، وهو لسان القبیلة والملوک وهو الذی یدافع عن قبیلته أمام القبائل الأخری ویحتمل أعمالها فی جمیع الأمور وفی الترحال والسفر ویستأنس بجبال الأرض التی یعیش فیها ویتلذذ من صحراءها وبحارها ووادیانها فی طبیعیته، ولذلک کان الشاعر یعتبر عند العرب فی العصر الجاهلی رئیس القبیلة وأمیرها، ولم یکن لهم علم أصحُ منه، کما کان ذا معرفة بالأنساب ومعالی‌الأخلاق، ولیست مهمته کالمؤرخ بل أهم منه وهو مخزون من حیث المعارف ولذا قیل: إنّ الشعر الجاهلی لم یسمُ إلی الذروة العلیا التی بلغها الشاعر إلا لکونه صادقاً لبیئته الجاهلیة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

الکلمات الدلیلیة: الشعر الجاهلی، الطبیعة، الزواج، البحار، المثقب العبدی.

*. أستاذ مشارک بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت (دانشیار دانشگاه آزاد اسلامی واحد جیرفت).

تاریخ الوصول: ۱۳۸۸/۳/۱۲هـ. ش تاریخ القبول: ۱۳۸۸/۵/۲۵هـ. ش

الشعر وتأثيره على البيئة

إن الشعر كما قاله ابن سلام يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب. (الجمحى، ١٩١٣م، ج١: ٢٤) والفارابى يعتقد بأن: «الأقاويل الشعرية هى التى تؤلف من أشياء محاكية للأمد الذى فيه القول أو أنها توقع فى ذهن السامعين المحاكى للشىء.» (الروبى، لاتا: ٧١)

فالشعر صورة فنية موازية لحياة أصحابه وبئيتهم وهى تختزن فى عباراتها أفكارهم وعاداتهم وأنسابهم ومشاعرهم فى كل زمان.

فالشعر الجاهلى هو الذى يحكى عن بيئة الشاعر وقبيلته، لأن الأرض التى يعيش فيه هو موطنه، والأحداث التى تجرى فيها هى خواطر وذكريات مشاعره ولهذا نحن عندما نسمع كلمات الشاعر التى تغنى بالبيئة نحسّ كلَّ شىء عن طبيعيته ومجتمعه ونشهد التجربة التى مر بها الشاعر ونقلها إلينا فى صوره واقعا فنياً وفكرياً بأى شكلٍ كان.

فمن ذلک نرى الشعراء إذا صعب عليهم إنشاد الشعر، انفردوا فى حياتهم، وأخذوا يسيرون فى شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة حتى يصبحوا قادرين على إنشاد الشعر. فمن هؤلاء نرى امرءالقيس من الشعراء الجاهليين والفرزوق من الشعراء الأمويين كانوا ينزحون مِن مكان إلى آخر ويحلون فيها كى يصوروا مشاهداتهم للبيئتين الصامتة والمتحركة، ولذلک نرى الشعراء غالباً يذكرون الرحيل والترحال والانتقال وتوقع البين والأشفاق منه وصفة الطلول والحمول والتشوق بحنين الإبل، ولمع البروق ومرّ النسيم وذكر المياه التى يلتقون عليها والرياض التى يحلون بها (القيروانى، ٢٠٠٤م: ٢٢٥). فالبيئة هى منبع الإلهام الشعرى ومحملاً لجملة من الأفكار والمشاعر.

فنرى المسيب بن علس البكرى والمتلمس وعبيد بن الأبرص الأسدى قد عاشوا فى مناطق بحرية وبرية ولم ينسوا ما أولاه هناک مِن آثار وترحال كما عاش طرفة بن العبد فى البحرين وبها دفن وأنشد ما رآه فى بيئته. (محمد شاكر، ١٩٦٤م، ج١: ١٧٤)

الشعر الجاهلى وتأثيره على البيئتين الاجتماعية والعائلية

إن البيئة الجاهلية هيمنت على مشاعر البدوى وأفكاره وتدخلت فى تكوينها وصياغتها حسب ما تقتضيه، ودفعت به إلى حياة تنسجم مع ما تفرضه عليه، فكان منفعلاً معها، فعاداته وقيمه مصوغة على ما قدمته فى البرّ والبحر وفى مجتمعه ولذلک نراه منفرداً فى بعض خصائصه بين القبائل الأخرى منها:

الزواج وتأثيره فى البيئة الجاهلية

كان الزواج يعتمد على أحد مِن الأنواع الثلاثة فى الجاهلية وهو زواج المقت وزواج الأخيذة وزواج الاستبضاع.

فأما زواج المقت فهو أن الإبن كان يرث زوج الأب المتوفى، فيتخذها زوجاً له، أو يعقلها حتى تموت، أو ترد إليه صداقها، وللوارث أن يفعل ذلک بزوج المتوفى، إذا القى عليها ثوبه قبل أن تذهب إلى أهلها. (هبو، ١٩٨٠م: ٥٣٤)

وقد عده أوس بن حجر التميمى نكاحاً منافياً لخصوصية المجتمع الجاهلى فأخذ يهجو قوماً قائلاً:

gÀÒÁn Kd ĮŻŹ ĞŁèéøÌÀâãş فكلّهم لأبيه ضيزَنٌ[1] سَلفُ

(المصدر نفسه: ٥٣٦)

فالاتفاق بين أكثر الأدباء والقبائل الجاهلية هو أن زواج المقت مبنىٌ على الإكراه وليس فى الشعر الجاهلى ما يدل على متانة العلاقة بين طرفى زواج المقت فإنّ زواج المقت فيه استهانةٌ بمشاعرِ الزوجية، فلا خطبة فيه ولا مهر.

زواج الأخيذة[2]: أما زواج الأخيذة فهى سبيةٌ صريحة النسب، يتخذها آسرها زوجةً له أو يجعلها زوجة أقربائه، فالأخيذة تكره على الزواج بغير خطبةٍ ولا مهر ومن الشعر الدال على ذلک قول الحطئية يمدح ابن حصن الفرازى قائلاً:

١. الضيزن الذى يزاحم أباه فى امرأته وقوله سلف يقول الرجل منهم يأتى أمه وخالته فهو ضيزن لأبيه بالأم وسلف له بالخالة ويروى والفارسية فيكم غير منكرة يخاطبهم بذلک والسلف زوج أخت امرأة الرجل يقال هو سلفه وظأمه وظأبه.

٢. الأخيذه هى المرأة الأسيرة.

وبَكرٍ فلاها من نعيم غريرة[1] مصاحبةٍ على الكراهين فاركِ
يقلن لها لاتجرعى أنّ تبدَّ لى بأهلكِ أهلاً والخطوب كذلكِ

(الحطيئة، ١٩٨٧: ١٢٣)

إن المديح السابق يُبين كراهة الأخيذة لمن تجبر على مصاحبته، فهى مكرهة على أن تستبدل بأهلها أهل آسرها وهذه من خطوب الحياة الجاهلية القاسية وزواج الأخيذة يمنحها حقوق زوجة البعولة عدا حق الحرية فى مفارقة زوجها فهى مكرّمة ومنعمة، تحتلط بنساء قبيلة زوجها وآسرها وكأنها واحدة منهن ونسبت إلى حاتم الطائى أبيات واضحة الدلالة على ذلك منها قوله:

وما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلةً ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا
ولكن خلطناها بخير نساءنا فجاءت بهم بيضاً وجوههم زهرا
وكائن ترى فينا من أبى سبيّةٍ إذا لقى الأبطال يطعنهم شزرا

(الطائى، ١٩٩٠م: ٢٨٣)

أما زواج الاستبضاع، فهو نوع غريب من الزواج، وهو أن تقدم المرأة أو تجبر عليه طلباً لنجابة الولد، فتستطرق رجلاً قوياً شجاعاً كريماً غير بعلها، أملاً فى إنجاب ولدٍ مثله وهذا النوع من الزواج لم يكن شائعاً بين القبائل الجاهلية فكما يُقال إن أخت لقمان كانت تلد لزوجها أولادا ضعافاً، فاحتالت على أخيها لقمان فأسكرته واندست له، وقيل إنها ولدت منه ولداً سمّته لُقَيْمَاً، وكان أحزم الناس، وذلك فى قول النمر:

لُقيمُ بن لقمان مِن أخته فكان ابن أختٍ له وابنما
ليالى حُمق فاستحصنت إليه فَغرّ بها مُظلما
فأحبلها رجل نابة فجاءت به رجلاً مُحْكما

(النمر بن تولب، ١٩٦٩م: ١٠٦)

١. الغريرة هى التى لم تجرّب شيئاً.

و مِن بیت للخَنساء، قولا فی رثاء أخیها:

لکنّ أخی أروع ذو مُرّةٍ مِن مثلة تستبضعُ الباغیة

(الخنساء، ۱۹۸۶م: ۳۲۲)

إنجاب الأبناء ورعایتهم فی البیئة الجاهلیة

إن لزواج البعولة غایة رئیسة محدّدة، وهی المحافظة علی استمرار الوجود الإنسانی بالإنجاب، ولما کان المجتمع الجاهلی مقروناً بالصراعات، فقد حرصوا علی إنجاب الأبناء الأقویاء وعلی تربیتهم تربیة کاملة فی جسد قوی یستطیع الإبن أن یقابل العدو بکلّ قدرة، ویتحدی الطبیعة القاسیة، ومن أجل ذلک کان البعل یختار ذات الحسب والنسب لیقرن بها لاعتقاده بقدرتها علی توریث القوة الجسدیة والبدنیة لأبنائها وعلی تربیته یتمثلون بها قیم مجتمعهم ویتلو اختیار الزوجة الوقت المناسب للحمل، فقد اعتقد الجاهلیون أن الزوجة إذا حملت وهی فزعة ومکرهة علی طرق بعلها إیاها فجاءت بغلامٍ لا یطاق، ومن جیّد الشعر علی ذلک قول أبی کبیر الهذلی یصف صاحباً له:

و لقد سریتُ علی الظلام بمغشم جلدٍ مِن الفتیان غیر مُهبَل

فما حملن به وهُنَّ عواقدٌ حُبُک الثیاب فشد غیر مُثقَّلِ

حملت به فی لیلةٍ مزؤودةٍ کَرُهَاً وعقد نطاقها لم یُحلَلِ

فأتت به حوش الجنان مُبطَّناً سُهُدَاً إذا ما نامَ لیلُ الهَوجلِ

(السکری، ۱۹۶۵م: ۱۰۷۳)

ثمّ یُضیف أبوکبیر صفات أخری تلزم الاستکمال قوة المولود الجسدیة قائلاً:

ومُبرّأ مِن کلّ غیرِ حیضةٍ وفسادُ مرضعةٍ وداءٍ Ōɛ8ɑ

ویبین السکّری شرح البیت السابق أنّ الأم لم تحمل علی مولودها، فتسقیه الغیل[1] وأنّه لم یُصب بداءٍ شدیدٍ معضل، فالأسرة الزواجیة تنزع إلی إنجاب الأبناء الأقویاء باختیار أسلوب الحمل المناسب وبتغذیة المولود بلبنٍ اعتقدت بلزومه لصحة الأبناء.

۱. الغیل هو اللبن الذی ترضعه المرأة ولدها.

وكانت الأسرة الزواجية تطمع إلى أن يشّب أبناؤها على مثال ترتضيه وفى هذا الأمر ما قالته الشعراء منهم قول هند بنت عتبة و هى ترقّص ابنها معاوية:

إنّ بنى مُعرِقٌ كريمُ　　مُحَبّبٌ فى أهلهِ حليمُ
ليسَ بفحاش ولا لئيم　　ولا بطخرورٍ ولاسؤوم
صخر بنى فهرٍ به زعيم　　لا يخلف الظن ولا يَخِيمُ

(القالى، لاتا، ج۲: ۱۱۶)

وشبيه ذلک أبيات لصفية بنت عبدالمطلب فى ابنها الزبير بن العوام، تبين فيها أنها تُحسِنُ تربيةَ ابنها وأنها تُقدم على ضربه ليعقل وليشب رجلاً جواداً شجاعاً. (المصعب الزبيرى، ۱۹۸۵م: ۲۳۰)

وزعمت أم عمرو بن كلثوم التغلبى أنها ولدت غلاماً وسمته عمراً، فلّما أتت عليه سنة، قالت أتانى ذلک الآتى فى الليل أعرفه، فأشار إلى الصبى وقال:

إنى زعيمٌ لکِ أمَّ عمرو　　بما جد الجدّ كريم النجرِ
أشجَع مِن ذى لِبَدٍ هِزَبرِ　　وَقَّاصِ أقرانٍ شديدِ الأسرِ
يسودهم فى خمسةٍ وعَشرِ

(الاصفهانى، لاتا، ج۱۱: ۴۰)

فقال الأخذر لقد ساد وهو ابن خمسة عشر ومات وله مائة وخمسون سنة.

نشأة الأولاد والبنات

مِن الأمور المهمة فى نشأةِ الأطفال وتربيتهم أن الأعراب فى الجاهلية كانوا يهتمون بالأبناء الذكور دون الإناث، ولم يذكر الشعر الجاهلى هذا الأمر إلا فى قول أمية بن أبى الصلت وهو يعاتب ابنه قائلاً:

غذوتکَ مولوداً وعُلتُک يافعاً　　تُعَلُّ بما أدنى عليکَ وتنهلُ
إذا ليلةٌ نابتک بالشكو لم أبت　　لشكواک إلا ساهراً أتململُ
كأنى أنا المطروق دونک بالذى　　طرقت به دونى وعينى تُهملُ

تخافُ الردی نفسی علیکَ وإنّها　　لتعلم بأنّ الموت حتمٌ مؤجلُ

(أمیة بن أبی الصلت، لاتا: ۴۳۰)

ولقد صور الأعشی تعلّق البنات بالآباء حین یزمعون الرحیل، فها هی ابنته تنظر إلیه، وقد رأفت لحظة ارتحاله، فتدعو ربّها أن یحفظ والدها مِن الأوجاع والآلام، وکانت قد بذلت جهدها لتمنع أباها عن‌الارتحال، ولکنّ مطالب الحیاة کانت أقوی مِن العواطف، فارتَحَل الأب، وهو یدعو لابنته تحمل ما دعت له، ویوصیها بأن تستخبر عنه وتنتظر إیابه وأنشد حول هذا قائلاً:

تقول بنتی وقد قرّبتُ مرتحلا　　یاربِّ جنِّب أبی الأوصاب والوجعا
واستشفعتْ مِن سراة الحی ذا شرفٍ　　فقد عصاها أبوها والذی شفعا
مهلاً بُنَیَّ فإنّ المرءَ یبعثه　　هَمٌّ إذا خالط الحیزوم والضِّلعا
کونی کمثل التی إن غاب وافدها　　أهدت له من بعید نظرةً جزعا
ولاتکونی کمن لا یرتجی أوباً　　لذی اغترابٍ ولا یرجو له رجعا

(الأعشی، ۱۹۹۲م: ۱۹۹)

البیئة الطبیعیة وأهمیتها فی الشعر الجاهلی

إنّ الظواهر الاجتماعیة والفکریة التی صاغتها البیئة الطبیعیة لبلاد العرب فی إطارها المناسب کظاهرة الکرم والفروسیة وحمایة الظعائن والمرأة والمحافظة علی النسب والشرف وإغاثة الملهوف ونصرة الضعیف وذم البخل واللؤم والجبن والفرار وغیرها کانت من العادات المألوفة عند البدوی. (طرّاد، لاتا: ۷۵)

فإن أهمّ ظاهرةٍ فرضتها البیئة علی حیاة الأعراب هی ظاهرة النُجعة وکان الأعراب ینتقلون من محاضرهم التی اتخذوها وطناً إلی منازل بالبادیة تسعة أشهر طلباً للکلأ والماء، وکانت رحلتهم تبدأ نحو الرابع عشر من آب أو أغسطس. (ابن قتیبة، ۱۳۵۶ق: ۱۰۰)

فالقبائل العربیة کانت تنزل من تلک المناطق فی أضلاطٍ شتی فی الشعر الجاهلی

والمقدمة الطللية هی أكثر مقاطع القصيدة الجاهلية دلالةً على مدى تأثير البيئة البدوية وبرز هذا التأثير واضحاً فی وحدة العادات والتقاليد والقيم واللغة والثّقافه والمشاعر كما تحدث عند المثقب العبدی.[1] (فروخ، ۱۹۸۴م، ج۱: ۶۰)

أفاطم قبلَ بينكِ متعينی ومنعک ماسألت كأن تبينی
فقلت لبعضهن وشدّ رحلی لهاجرةٍ نصبتُ لها جبينی
إذا ما قمتُ أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين
أكلّ الدهر حلٌّ وارتحالٌ؟ أما يُبقی علیَّ وما يقينی

فنری المثقب العبدی فی أبياتٍ أخری يستبشر ناقته على أنّها ستصل إلى مناجع جديدة فيها العشب والكلأ والماء، فهو فی سباق مع الزمن، ليتهلل بمرأى الضيف ويسرع ليختار أحسَن إبله لينحرها قائلاً:

فلما أتانی والسماء تبلّه تقول له أهلاً وسهلاً ومرحبا
وقمتُ إلى البرک الهواجد فاتقت بكوماء لم يترک لها النیّ مهربا

(المثقب العبدی، ۱۹۷۱م: ۱۹۵۶)

فشدة الريح وهطول المطر زادت من إصرار المثقب على إكرام ضيفه، وكان العربی البدوی لا يبخل بما عنده على ضيفه، وفيه يختار احترام الجار وحفظ حرمته ويفتخر بنفسه فی هذه الأحوال منتشراً. (فروخ، ۱۹۸۴م: ۱۶۲)

لا تقولن إذا ما لم ترِد أن تُتمّ الوعد فی شیء «نعم»
حَسنٌ قولُ «نعم» مِن بعد «لا» و قبيحٌ قول «لا» بعد «نعم»
إنّ «لا» بعد «نعم» فاحشةٌ فبـ «لا» ابدأ إذا خفتَ النَّدَم
لا يُبالی طيّب النفس به تلفُ المال إذا الحر فی سَلَم

۱. المثقب العبدی، هو أبو عمرو بن ربيعة بن نزار وكانت مساكن قومه فی البحرين. كانت وفاته عام (۳۵هـ ـ ۵۸۷ م) وهو أقدم من النابغة. المثقب شاعر مجيد، غريب الألفاظ، متين التراكيب جدّا وأعراض شعره يدور على المدح والفخر والحكمة والطرد ووصف الراحلة، له قصيدةٌ بارعة مدحها ابن سلام، وقال ابن قتيبة كان أبو عمرو يستجيد هذه القصيدة ولوجب على الناس أن يتعلموه والقصيدة طويلة. (فروخ، ۱۹۸۴م، ج۱: ۱۶۰)

أكرم الجارَ وارعى حقّه إن عرفان الفتى الحقّ كرم
اجعل المال لعرضى جُنةً إنّ خير المال ما أدى الذّمم

فهذه هی صورة فنیة لأحد شعراء الجاهلیة یبیّن فیها بیئته الاجتماعیة فی تنمیة ظاهرة الکرم وتعزیزها فی النفوس، وتوحی هذه الصورة بأن الحیاة اجتماعیة غیر منفردة، ولقلة الموارد الطبیعیة والمائیة أباحَ فی شریعتهم الغزو والسلب، وافتخر بذلک کثیرٌ من شعراء الجاهلیة بهذه الصفة، فکلّ واحدٍ منهم یصفُ فروستیه وانتصاره علی خصمه و لو جَبن أو ضعُف لنالَ منه خصمه کما یقول بعض الشعراء:

فلم أنکل و لم أجبن ولکن شددت علی أبی عمرو بن عمرو
ترکتُ الرمحَ یبرقُ فی صلاه کأن سنانه خرطوم نسرِ

(الضبی، لاتا: ۷۱)

فهو یؤکد علی فروسیته ویفتخر بقومه وینصرهم علی عدو قوی وشدید یدیمُ فی قوله قائلاً:

فأنک لو رأیت غداة جئنا ببطن أثالَ ضاحیة نسوقُ
مشینا شطرنهم ومشوا إلینا وقلنا الیوم ما تقضی الحقوق

الخیل ذو أهمیته فی البئیة الطبیعیة

إن الخیل هو حصن العربی ودرعه فی حیاته یحتمی من ضربات السیوف وطعنات الرماح، ولهذا نری الأصیل العتیق کان یصنع له شجرة أنساب ولاعیب للعربی فی أن یؤثره علی نفسه وأهله فی أوقات العسرة، وکانت العرب تهنئ بعضها البعض بنتاجها، وأخذ کلّ منهم یصف فرسه فی حالة خاصة منها وصف امرىء القیس منشداً:

وقد أغتدی، والطیر فی وکناتها بمنجردٍ، قید الأوابد هیکل
مکرٍّ، مفرٍّ، مُقبل، مُدبر، معا کجلمود صخرٍ حطّه السیل مِن عَلِ
کُمیتٍ،یزِلّ اللبدَ عن حال متنه کما زلت الصفواء بالمتنزل
له أیطلا ظبی وساقا نعامةٍ وإرخاء سِرحان، وتقریبُ تتفُلِ

كأنّ دماءَ الهاديات بنحره عصارة حنّاءٍ بشيبٍ مُرَجّلِ
فعادى عداءً بينِ ثورٍ ونعجةٍ دراكا ولم ينضح بماءٍ فيغسلِ
فبات عليه سَرجه ولجامه وبات بعينى قائماً، غير مُرسَلِ

(شيخو، لاتا، ج ۱: ۳۶)

ويصف شاعرٌ آخرٌ فرسه وهو طرفة بن البعد وصفاً جميلاً ورائعاً بقوله مُنشداً:

و هم ما هم، إذا ما لبسوا نسج داود لبأس محتضر
وتساقى القوم كأساً مرةً وعلا الخيل دماءٌ كالشَّقر

ويصفها آخر وهو عنترة بن شداد ويفتخر بفرسه وخيله بشكل آخر وهى من صفات البيئة الطبيعية التى يعيش فيها البدوى والحضرى قائلاً. (المصدر نفسه: ۷۰)

والخيلُ تقتحم الخبارَ عوابساً مِن بين شيظمة وأجرد شيظمِ
ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تدر للحرب دائرةٌ على ابنى ضمضمِ

يُريد به أن ذلک كان فى وقتٍ تجرى خيلنا الطويلة العليلة الشعر الكالحة الوجوه فى أرض رخوة فيها قوائمها، فتسير بصعوبة. (المصدر نفسه: ۱۶۱)

البيئة الطبيعية البرّية

الف ـ البيئة الصامتة

كان الشعراء الجاهليون يتحدثون عنالطبيعة الصامة والمتحركة بجبالها وسهولها وحرّها ومطرها ومواقعها وشجرها ونباتاتها، فأينما لاحت لهم صورة ممتزجة بحياتهم ومشاعرهم جعلوها مادة لغتهم، فتأثروا بها. والشاعر الجاهلى كان يتغنى ببيئته الطبيعية ويسوق ذلک فى إطار هدفه الذى يسعى إليه فى موضوعات قصيدته ولهذا حفلت المقدمات الطللية ومشاهد الرحلة والحيوان خاصةً بصور كثيرة ومثيرة للبيئة الطبيعية، فالشاعر يسوق فى سرد تبتغى رحلة الضعائن من موضع إلى موضع آخر وهى تصعد ربوة أو تغيب فى واد فينخلع قلبه من جنبه ظناً به أنه لم يرها بعد، فعينه تظلّ ترصد مرورها كما يقول زهير بن أبى سلمى فى معلقته:

تبصّر خلیلیّ، هل تری مِن ضعائنٍ تحمّلن بالعلیاء مِن فوق جُرثُم؟
علونَ بأنماطٍ عتاقٍ و کِلَّةٍ وراد حواشیها، مشاکهة الدمِ
جعلن القنان عن یمینٍ وحزنه وکم بالقنان مِن مُحلٍّ ومُحرِمِ

(شیخو، لاتا، ج۱: ۸۴)

أمّا الحدیث عن الحرّ والقرّ فلم یکن طویلاً ولا مقصوداً لذاته والعکس عند قصیدة الشنفری حین یقول:

ویوم من الشعری، یذوبُ لعابُه أفاعیه، فی رمضائه، تتململُ
نصبتُ له وجهی، ولا کِنَّ دونَه ولا سِترَ إلاّ الأتخمیُّ المرعبلُ

(المصدر نفسه: ۱۱)

والشعری هو کوکب فی الجوزاء فی لیالی الحرّ، واللعاب ما نراه فی شدة الحرّ، مثل نسج العنکبوت، والرمضاء الأرض الحارة من وقع الشمس علیها ویقول فی البیتین: ورُبَّ یوم مِن الأیام التی تطلع فیه الشعری، وکان قد اشتد فیه الحرّ وثارت علی الأرض هبوات النار حتی لاتکاد الأفاعی تستقرّ علی رمضائه لشدةِ حرارتها، کنتُ أنصبُ وجهی لأشعة الشمس، ولا یسترنی عنها سترٌ ولا وقایة إلا بُردٌ خَلِقٌ. (الشنفری،۱۹۹۳م: ۶۲)

والوصف الذی یذکر فیه المطر والبرق والرعد لم یکن علی المستوی الفنی الذی لدی بعض الجاهلین، کامرئ القیس مثلاً حین یقول:

أصاحِ تری برقاً أریک ومیضه کلمع الیدینِ فی حَبِیٍّ مُکَلَّلِ
علی قطنٍ، بالبشیم، أیمنُ صوته وأیسره علی الستار، فیذبُلِ
ومرّ علی القنان مِن نفیانه فأنزل منه العُصم مِن کلّ منزلِ

(شیخو، لاتا، ج۱: ۳۹)

وهناک ثعلبة بن عمرو یصوّر لنا درعاً متلألئةً فیقتنص من صورة الغدیر الذی ضربته الریح مثلاً لذلک وأضافَ صورةً أخری حین جعل السماء تدفع بشآبیب الغیث فی وقت الصیف، وقدأ برز لآلئ الماء هبوب الریح علیه کما یقول:

ببیضاء مثل النِّهیِ ریح ومدّه شآبیب غیث یحفش الأکم صائف

(الضبی، لاتا: ۲۸۲)

ب ـ البئية المتحركة

دخلت صورة البيئة المتحركة والحية فی نسيج الحياة الجاهلية، فشكلت أثراً واقعياً وفنياً، وأخذت تشمل ما كان فی الحركة فی حياته من الإبل والأنغام والخيل والمطر والبرق... إلخ.

فالبيئة الطبيعية الحية والجامدة، لم تكن عند الشاعر هدفاً لذاته ولا أصلاً لسواه من الأهداف كما توهَّم بعض الباحثين.

فالشعراء الجاهليون استطاعوا أن ينقلوا بأصالةٍ ودقةٍ وبراعة تفاعلهم الخلاق مع بيئتهم القديم والجديدة ونجحوا فی تحميل ناقتهم لطلب النجعة. فالشعراء كلّهم إن كانوا من شبه جزيرة العرب أو من الخليج الفارسی فقد أبدعوا الواقع الفنی من صميم الواقع الطبيعی لقول المثقب العبدی:

أجدّک ما يدريک أنْ رُبّ بلدةٍ ... إذا الشمسُ فی الأيام طال ركودُها
وصاحت صواديح النهار وأعرضت ... لوامع يُطوی ريطُها و برودُها
علی طرق عِند الأراكة ربّةٍ ... توازی شريم البحر وهو قعيدها

(المصدر السابق: ۱۲۰)

البيئة البحرية

إنّ دراسة البيئة البرية الصامته والمتحركة كشفت لنا بأن الأثر الفنی فی صورته وجوهره للأثر الطبيعی تصوير رائع، وأن كل شاعرٍ استمد منه لوحاته المؤثرة، وهنا نری الشعراء قد صوروا لنا البيئة البحرية بكل فكر ثاقب، فكلّ من امرئ القيس والمثقب العبدی وطرفة والمرّقش، قد صوروا لنا تصاوير جميلة عن البحر فمنها القصيدة النونية للمثقب العبدی والتی فيها حديث جميل عن صناعة السفن وحركتها اللينة السريعة فی الماء مشبها الضعائن بها قائلاً:

وهنّ كذلک حين قطعن فَلْجاً ... كأنَّ حمولَهُنَّ علی سفينِ
يُشبَّهنَ السَّفينَ وهُنَّ بُختٌ ... عُراضَاتُ الأباهِرِ وَالشُّؤونِ

كأنَّ الكُورَ والأنساعَ منها　　على قرواءَ ماهرةٍ دهينِ
يَشُقُّ الماءَ جُؤجُؤُهَا وَيعلو　　غواربَ كُلِّ ذِی حَدَبٍ بَطِينِ

(المصدر نفسه: ۲۴۴)

وهذا طرفة يصفُ جمله بالسفينة الكبرى التى تجرى على البحر قائلاً:

عدوليةٍ أو من سفينِ ابن يامِنٍ　　يجور بها الملاحُ طوراً ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها　　كما قَسَمَ التُربَ المفائِلُ باليدِ

(التبريزى، ۲۰۰۱م: ۱۰۶)

وينفرد المسيب بن علس الضبعى فى تصوير البحارة وركوب البحر والغوص على اللؤلؤ، فقد وصف حكاية أربعة بحارة غامروا بحياتهم فى سبيل واحد، ورسم لنا فيها لوحة بارعة ومثيرة لحياتهم ومشاعرهم وقد وصف صاحبته بالجُمانة التى جاء بها أولئک الغواصين، قائلاً:

كجُمانة البحرى جاء بها　　غواصّها مِن لجَّة البحرِ
صلبُ الفؤاد رئيسُ أربعةٍ　　متخالفى الألوان والنجرِ
وَ غلت بهم سجحاءُ خادمةٌ　　تهوى بهم فى لجة البحر
حتى إذا ما ساءَ ظنّهم　　ومضى بهم شهر إلى شهرِ
ألقى مراسِيَه بِتهلُكةٍ　　ثبَّتَ مراسيها فما تجرى
فأصاب منيته فجاءَ بها　　صدفية كمضيئة الجمر
يُعطى بها ثمناً فيمنعها　　ويقول صاحبه، ألا تشرى
فتلکَ شِبهُ المالكية إذ　　طلعت ببهجتها من الخدر

(البغدادى، لاتا، ج۱: ۱۷۴)

فقد مثّل صاحبته المالكية بالجمانة وهو كرئيس البحارة الذى يريد اصطياد تلک الجمانة. أما حديث عبيد بن الأبرص فقد ساقه عن البيئة البحرية سياقاً آخر يلبّى رغبته وهدفه فى الافتخار بشعره وقدرته على اصطياد شوارده، فكان بهذا منفرداً من دون الشعراء الجاهلين، وظلّ كالمسيّب فى تفصيل صورة البحر إذ تتبع بحسّ الفنان الأصيل

لحركة السمک وقدرته على المناورة فی لجّ البحر، فحياته فی الماء وموته بخروجه منه، وحياة عبيد تكمن فی الشعر، وينتهی فی قصيدته إلی تصوير طريف لدرعه الملساء اللامعة الصافية، القوية النسج، الخالية من الشوائب، فيجعل صورة الحوت لها شبها منشداً بذلک:

سلِ الشعراء هل سبحوا کسبحی ... بحور الشعر أو غاصوا مغاصی
لسانی بالنثير وبالقوافی ... وبالأسجاع أمهرُ فِی الغياص
من الحوتِ الذی فی لجّ بحرٍ ... يُجيدُ السّبح فی لُجَج المغاصِ
بنات الماء ليس لها حياةٌ ... إذا أخرجتهنَّ من المداصِ
إذا قبضت عليه الکف حيناً ... تناعص تحتها أیّ انتعاصِ
وباصَ ولاصَ مِن ملصٍ مِلاصٍ ... وحوتُ البحرِ أسودُ ذو ملاصِ
کلون الماءِ أسودُ ذو قشورٍ ... نُسِجنَ تلاحُمَ السّردِ الدِلاصِ

(الأبرص، لاتا: ۷۶)

النتيجة

إن مشاهد البيئة الطبيعية فی القصيدة الجاهلية لها خصائص الشعر الجاهلی بسماته الواقعية والحسية وتبرز ظاهرة النجعة والرحيل بوضوح فی أشعارهم فنحن لانشک فی أنَّ الشعراء خلدوا للطبيعة وتأثروا بها وتمثلوها فی ذواتهم واختزنوها صوراً مؤثرة، فتغنوا بها، فجاءت قصائدهم منسجمة مع أغراضهم فی أثر فنی ممتع ومؤثر يحمل عظمة التجربة الواقعية وينطوی على دلالات زمينة ومكانية ونفسية وفكرية.

فشعراء الجاهلية تغنّوا بالبادية فلاةً وسهلاً وجبلاً، کما قال امرؤالقيس:

کأنّ ثبيراً فی عرانين وبله ... کبيرُ أناسٍ فی بجاد مُزَمّلِ

(شيخو، لاتا، ج ۱: ۳۷)

ولما استقروا فی منطقتهم أخلصوا لها فنقلوها فی الإطار المدنی الجديد الذی انتهوا إليه فصبغت حياتهم وفنهم بأساليب خاصة.

فإننا نری مشاهد البیئة الطبیعیة لم تکن أکثر إبداعاً من البیئة البریة والجویة فهم وصفوا السفن وترکوب البحر. فالبیئة الطبیعیة تعدّ شکلاً من أشکال التعلّق بالوطن من الأرض والقبیلة ونظام حیاتها، فلذلک أصحبت البیئة الطبیعیة فی الشعر الجاهلی فطریة ومجتمعة وإن تباینت فی بعض صفاتها وطرائق تناولها، وقد أخلص أبناء کلّ بیئة لبیئتهم دون أن یهملوا ما اختزنوه من صور البیئات العربیة التی عاشوا بها أو انتقلوا منها.

المصادر والمراجع

ابن أبی الصلت، أمیة. لاتا. *دیوان أمیة بن أبی الصلت*. تحقیق عبدالحفیظ السطلی. دمشق: مکتبة أطلس.

ابن العبد، طرفة. ۱۹۷۵م. *دیوان طرفة*. تحقیق درية الخطیب. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة.

ابن حجر، أوس. لاتا. *دیوان أوس*. تحقیق محمدیوسف نجم. بیروت: دار صادر.

ابن عبدربه. ۱۹۶۵م. *العقد الفرید*. تحقیق أحمد أمین. بیروت: دار الکتاب العربی.

ابن قتیبه. ۱۳۵۶ هـ . ق. *الأنواء فی مواسم العرب*. بغداد: دائرة المعارف اللقمانیة.

ابن کلثوم، عمرو. ۱۹۹۱م. *دیوان عمروبن کلثوم*. تحقیق علی أبوزید. دمشق: دار سعدالدین.

أحمد فراج، عبدالستار. لاتا. *دیوان أشعار الهذلیین*. القاهرة: مکتبة دارالعروبة.

الأصمعی. ۱۹۶۴م. *الأصمعیات*. تحقیق أحمد محمد شاکر. مصر: دارالمعارف.

الأعشی. ۱۹۹۲م. *دیوان الأعشی*. تحقیق حنا نصر. بیروت: دار الکتاب العربی.

امرؤالقیس. ۱۹۹۰م. *دیوان امرئ القیس*. تحقیق محمد أبوالفضل إبراهیم. مصر: دارالمعارف.

التبریزی. ۲۰۰۱م. *شرح القصائد العشر*. تحقیق مفید قمیحة. بیروت: مکتبة الهلال.

الجاحظ، عمرو بن بحر. لاتا. *البیان والتبیین*. تحقیق عبدالسلام هارون. بیروت: دارالکتب العلمیة.

الجمحی، محمد بن سلاّم. ۱۹۱۲م. *طبقات الشعراء*. القاهرة: لانا.

الحطیئة. ۱۹۸۷ م. *دیوان الحطیئة*. تحقیق نعمان طه. القاهرة: مکتبة الخانجی.

الحموی، یاقوت. ۱۹۷۷م. *معجم‌البلدان*. بیروت: دار الفکر.

الحوفی، أحمد محمد. ۱۹۷۲م. *الحیاة العربیة من الشعر الجاهلی*. بیروت: دارالقلم.

الخنساء. ۱۹۸۴م. *دیوان الخنساء*. تحقیق إبراهیم عوضین. مصر: مطبعة السعادة.

الشنفری. ۱۹۶۱م. *دیوان الشنفری*. تحقیق کلال حرب. دمشق: المطبعة المعبادیة.

ـــــــ . ۱۹۹۳م. *دیوان الشنفری*. تحقیق عبدالعزیز المیمنی. بیروت: دارالکتب العلمیة.

ضیف، شوقی. ۱۹۷۱م. *الأدب الجاهلی*. مصر: دار المعارف.

الطائی، حاتم. ۱۹۹۰م. *دیوان شعر حاتم الطائی وأخباره*. تحقیق عادل سلیمان. القاهرة: مکتبةالخانجی.

العوار، عادل. لاتا. *الشعر الجاهلی*. القاهرة: الدار القومیة للطباعة.

فروخ، عمر. ۱۹۸۴م. *تاریخ الأدب العربی*. بیروت: دار العلم للملایین.

القالی. لاتا. *الأمالی*. بیروت: دار الکتاب العربی.

القیروانی، ابن رشیق. ۱۹۹۵م. *العمدة فی محاسن الشعر*. تحقیق محمد محیی الدین. مصر: مطبعة السعادة.

المثقب العبدی. ۱۹۷۱م. *دیوان المثقب العبدی*. تحقیق کامل الصیرفی. مصر: الشرکة المصریة.

المصعب الزبیری. ۱۹۸۵م. *نسب قریش*. مصر: دار المعارف.

المفضل الضبی. ۱۹۸۷م. *دیوان اختیارت المفضل*. تحقیق فخرالدین قباوة. بیروت: دارالکتب العلمیة.

نصرت، عبدالرحمن. ۱۹۸۲م. *الصورة الفنیة فی الشعر الجاهلی*. عمان: مکتبة العلوم.

النمربن تولب. لاتا. *دیوان النمر بن تولب*. تحقیق نوری حمودی. بغداد: مطبعة المعارف.

هبو، أحمد. ۱۹۸۰م. *تاریخ العرب قبل الإسلام*. جامعة حلب: مدیریة الکتب والمطبوعات.